الأندلس

مخطوطة عربية نادرة *

محمد الصباغ

بين ثلاثة حروف من رمـــل ، تعيـــش الأندلس :

تنام ، تحلم ، تتعرى ، ترقص ، تنزو ، تهجس ، تبدع ، تبوح ، ترسم فى جدران العالم ألوان البحار والمحار المستحيلة ، توزع امتشاق « الخيرالدا » هبوباً مائساً ميـــاداً على مروحة الأبعاد ، تقفى رقرقات « الوادى الكبير » بـــلا بـــل وعصافير تبحر بها الى آخر شروق ، تفسخ حزام وأزرار نقشة ورنـــة « غرناطة » ، فتتدفق الدهشة الحمراء ضوء كون موار .

* * *

(*) خـــاطـــرات اســـتوحاه الـــكاتـــب مـــن الـــنـــدوة التي نظمها المركز الاسباني ــ العربي بمدريد (27/24 من فبراير) الماضي ، حول موضوع « الانسية الاسبانية فى العالم العربي » ، حيث شارك فيها ممثلا لوزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية .

ع ــ ر ــ ب :

من رمال هذه الحروف ونخيلها تنهض اسبانيا ــ الفتـــاة الأندلسية من نومها فى كل صباح ، فتـــشرق طاووس شمـــس يفتح ألوان غلالة فسيفسائه فى السماء :

قباباً ، وقصوراً ، ومنتزهات ، ومشارف ، وملاعب دفع وفتح ، ومجد عمامة ، وعقال قيس ، وعباءة نهج بلاغة .

تنهض ، فينهض معها بستان تأريخ ، فى حفلـــة فكـــر ، وفـــن ، وغـــضــــــارة :

براعات تنبجس من خلجة رملة ، وشق تمـــرة ، ورنـــة دملج سمراء ، هى خلاصة حضارة مسطورة بريشة عـــرار ، فى مخطوطة عربية لا أنـــدر ولا أعجب ! محفوظة ، مضمورة ، مبهمـــة ، فى سر المكتبات الاسبانيـــة ، لا سبيـــل الى بهجـــة نسخها ، أو حفظها ، أو قراءتها ، أو محاكاتها ، أو طبعها .

مخطوطة وترية لو عثر على نـــدرة أسرارها ، ومفـــاتن سحرها ، ونزهة مكنوناتها ، لتناقل العالم طبعاتها على أشفار البـــرق ، ولتغير ازميل الحجر فى مهابط فنـــه برؤيـــة رخامية ناعمة ــ لا عهد له بها ــ تلين معها صلابـــة الصـــوان العنيـــد وقساوته ، موجة حريـــر .

لون جديد يضيف الى ألوانــه المعهودة وشباً ميسماً فى زخارف عليائه ، وابداعاً سندسياً سلسبيلا ، ينثر القشعريرة العربية ويطرزها فى مدى رحابه :

فقصائده بوشمة قافية ، تزيده معنى .

وطربــه الأرغنى ، يتغــنى بآهــات ومــدات ربــابــة « مزرييــة » منهومــة .

خلاصة مدنية مكنونة فى طيات هذه المخطوطة الأندلسية الساحرة المسحورة .

بجوار هذه المخطوطة ، ومن هواجس موحياتها ، انبثــق شيوخ الأزرق ، والأحمر ، والمعرض ، والريشــة الطروب — أولئك الذين مزقوا نزواتها مزقاً ، وسحيق فتــون ، فاعتمروا الشموخ بعدما زخرفوا الكون بألوانهم ، وأغانيهم ، وقوافيهم ، عمر نهضة أندلسية بيضاء .

* * *

بين ثلاثة حروف من رمل ، تعيش الأندلس :

أنزع غطاء حاضرها ، فتفيض على مهجة العرب ، ذوب أزمنة جواهر .

كالموزة ، أقشرها ، فتنتــتصب « الخيرالــدا » أمامى ، صاعدة من كل مسام الأندلس .

هذه « الخيرالــدا » ــ « الفاطمــة » ــ « الموحــدية » المغامرة ، التى سافرت ــ من هدهــدة الهــودج المراكشى الى معراج الفضاء الاشبيلى ــ فى خيــط سمو ، وحيــدة ، بدون زاد ، ولا جواز ، ولا حقائب ، وبنية التنسك الدائم فى الغربة المنتصبــة الفــارعة .

هذه « الخيرالــدا » (*) ــ السبابة التى تختصر جميــع الاشارات ، والالتفاتات العربية ، تصعــد الى سماء السماء ، الى الله ، حاملة على رأسها هواتف مجد عمامة .

الربــاط **محمد الصباغ**

(*) « اريــد أن أراك عربيــة » :
بيت من قصيدة للشاعر الاسباني الكبير المعاصر ، « خيراردو دييكو » بعنوان « الخيرالدا » .